مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 708 - 721 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التعالق النصي في الوصايا العربية في العصر العباسي

The Textual Correlation in the Arab Commandments in the Abbasid Era

رضوان غربي[*]، د/فاطمة دخية[2]

Radouan Gharbi[1], dr. Fatima Dakhia[2]

مخبر وحدة التكوين في نظرية القراءة ومناهجها، جامعة محمد خيضر-بسكرة (الجزائر)،

Mohamed Khider University – Biskra (Algeria)

radouan.gharbi15@gmail.com[1]

f.dakhia@univ-biskra.dz[2]

تاريخ الإرسال:2020/11/06	تاريخ القبول:2021/02/15	تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص البحث

يعالج هذا البحث موضوع (التعالق النصي في الوصايا العربية في العصر العباسي)، حيث استهدفت الدراسة آلية التعالق النصي بصفتها آلية نقدية اشتهرت في الساحة النقدية الغربية، والتي تؤكد بدورها على أنّ النصوص تتداخل وتتفاعل فيما بينها، ولا وجود لنصوص تتشكل من الفراغ، كما أنّ هذه الآلية كانت لها إرهاصات في التراث العربي القديم، لكن تحت مسميات مختلفة؛ كالسرقة والتضمين، والتي تتقارب في معناها مع مصطلح التعالق النصي، لذلك تمّ تفعيل هذه الآلية على نصوص الوصايا العربية في العصر العباسي، ولكنها نصوص إبداعية احتوت بين ثناياها مختلف أشكال التعالقات النصية، الدينية والأدبية والتاريخية.

الكلمات المفتاحية: الوصايا، النص، التعالق، العصر العباسي، آلية.

Abstract :

This study deals with the subject of the textual correlation in the arab commandments in the Abbasid era. The study targeted the mechanism of textual correlation as a criticism mechanism known in the western criticism arena which in turn confirms that texts overlap and interact with each other, this mechanism was activated on the texts of the Arabic testaments in the Abbasid period, and because they were creative texts that contained various forms of textual, religious, literary and historical correlations.

Key words: commandments, text, correlation, Abbasid era, mechanism.

[*] رضوان غربي: radouan.gharbi15@gmail.com

مقدمة

مما لا شك فيه أنّ العملية الإبداعية لدى أيّ مبدع لا يمكن أن تتجسد من الفراغ، ذلك أنّ النّص الأدبي يتشكّل انطلاقا من النصوص السابقة له أو المتزامنة معه، فلا يُمكن لأيّ نصّ أدبي أن ينشأ من العدم، ومن ثمّ فكلّ نصّ يتقاطع مع نصوص أخرى قد يكون استفاد منها ليشكّل نفسَه نصا جديدًا، وبالتالي فالنص الذي ينتجه المبدع يتغذى بغيره من النصوص، ويتفاعل مع مختلف المكونات الأدبية والثقافية والفنية، ويلجأ المبدع إلى تضمين النصوص الغائبة في نصه عن طريق التفاعل معها، واصطلح النقاد على هذه العملية مصطلح التعالق النصي.

هذا الأخير مصطلح حداثي، ظهر بظهور الدراسات الحديثة التي تهتم بعملية التأثير والتأثر بين النصوص الإبداعية، فالإنسان لا يولدُ مبدعًا ولا كاتبًا ولكن استهلاكه بكمٍّ هائلٍ من النصوص بمختلف مشاربها يعينه على ترسيخ ثروة ثقافية يستفيد منها في صقل مواهبه الفنية، حيث أنّ هذا الموضوع ولّد لدي رغبةً جامحةً في سبر أغوار الأدب العباسي، ومعرفة المستوى الفكري والأدبي للكتّاب والمبدعين من خلال أدب الوصايا، وهذا بدوره يقودنا إلى طرح الإشكالية الآتية: ما مفهوم التعالق النصي؟ وما هي آلياته؟ وفيمَ تتمثلُ أهم الروافد الثقافية التي وظفها الكُتّاب في وصاياهم؟ وهل نصوصهم صورة طبق الأصل لسابقيهم أم هي إبداع متجدّد في الشكل والمضمون والأسلوب؟.

1-مفهوم التعالق النّصّي:

1-1-في النقد الغربي:

يُعدّ التعالق النصي من أهمّ المصطلحات الحديثة في الساحة النقدية، فقد احتلّ مكانة كبيرة في آلياته التطبيقية على النصوص الأدبية بمختلف مستوياته وأشكاله، حيث نجد الناقد **جيرار جنيت** (**Gérard Genette**) يخصص أهم أبحاثه في معالجة قضية تداخل النصوص وتعالقها، وذلك من خلال كتابه (**معمار النص**)، حيث عبّر فيه عن معنى التعالق النصي بقوله: "كلّ ما يجعل نصًا يتعالق مع نصوص أخرى بشكل مباشر أو ضمني"[1]، مُشيرًا بذلك إلى أنّ النصوص تربطها علاقات مختلفة ببعضها البعض، قد تكون هذه العلاقات ظاهرة وجلية، أو خفية ومضمرة، يُضاف إلى ذلك ما أشار إليه **ميخائيل باختين Mikhaïl Bakhtine** الذي يؤكد

في كتابه (**فلسفة اللغة**) "أنّ اللغة الأدبية تقوم على التعدد اللساني الذي يكون أساس الحوار، الذي هو سلسلة من الحوارات في المجتمع وبفضل هذا الحوار يفهم موضوع الخطاب... فالنص عنده تدخل في حوارات مع نصوص أخرى"[2]؛ يكشف **باختين** أنّ اللغة الإبداعية تقوم على مجموعة من الملفوظات اللسانية التي تؤدي بدورها وظيفة التواصل بين مختلف إبداعات الأدباء، مؤكدًا أنّ النصوص الأدبية لا يُمكن أن تقوم دون التفاعل والتعالق مع نصوص سابقة لها.

وفي سياق التنظير المنهجي لمصطلح التعالق النصي نجد الكاتبة الفرنسية (جوليا كريستيفا) **Julia Kristeva** تنطلق من مفهومها العام للنص، ويتجلّى ذلك في قولها: "هو ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء معيّن تتقاطع ملفوظات عديدة متقطعة من نصوص أخرى"[3]، فالنص إذن هو امتصاص لنصوص متعددة تساهم في تشكيله.

كما يُعدّ الباحث الفرنسي (**رولان بارت**) **Roland Barthes** أحد أقطاب النقد الجديد، الذين ساهموا في توسيع دائرة التعالق النصي، حيث يُعرّفه بقوله: "ممارسة دلالية يوظّف فيها المبدعُ كلّ طاقاته، فالنّص تناصّ والتّعالق النّصّي هو إدراك القارئ لعلاقات بين النّص والنصوص السابقة له، أو الحضور الفعلي في نصّ آخر"[4]. يؤكد (**بارت**) في قوله هذا على أنّ النّصّ مشحون بكم هائل من الدلالات والتعالقات النصية التي تحتاج إلى قارئ يعمل على كشف هذه الدلالات وتأويلها وِفقًا لدرجة ثقافته ولرصيده الفكري، كاشفا بذلك مواطن التّأثّر والتّأثير ومدى تفاعل الكاتب مع نصوص غيره.

2-التعالق النصي في النقد العربي

2-1-عند القدامى

عالج النقاد القدامى الكثير من أشكال التعالقات النصية في مؤلفاتهم، لكن تحت مسميات كثيرة، وذلك من أجل معرفة ابتكار المبدع للمعاني الجديدة.

والصحيح أنّ الإشارات إلى وجود التعالق النصي إشارات قديمة قِدَم الشعر العربي، فقد وردَ عن الشاعر **امرئ القيس** أنه ليس أوّل من بكى الأطلال، وأنّ **ابن حذام** سبقه، ويتضح ذلك في قوله:

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحيلِ لَعَلَّنَا نَبكي الدّيارَ كَما بكى ابنُ جُذامِ[5]

وَكَما تَلَمَّسَ نقّاد المعاني والأفكار عند الشعراء الأوائل أمثال **عنترة بن شداد** حين يقول:

هَــلْ غــادَرَ الشُّــعراءُ مــن مُتَــرَدَّمِ أَمْ هَــلْ عَرَفــتَ الــدّارَ بعــدَ تَــوَهُّمِ[6]

فعنترة هنا يُقرُّ بأسبقية الشعراء عليه، وأنه قد اطّلع على أشعارهم، ورسخت في ذهنه، فقام بإخراجها في قالب جديد خاص به.

كما يُعدّ **ابن رشيق القيرواني** من النّقّاد الذين اهتموا بهذه القضية الأدبية، حيث يقول في كتابه (**العمدة**): "وهذا باب مُتَّسِعٌ جدًا لا يَقدِرُ أحدٌ من الشعراء السلامة منه"[7]. فكلّ شاعر قد أخذ من غيره ولا يسلم أَحَدٌ من المبدعين من ذلك.

2-2-عند المحدثين

حظي مصطلح التعالق النصي باهتمام كبير في الدراسات العربية الحديثة والمعاصرة، حيث تعددت صياغات مصطلح التعالق النصي في الدراسات العربية بتعدد النقاد، ومن بين هذه الصياغات: **التناصية، النصوص المتداخلة، النص الغائب، تفاعل النصوص**... إلخ. فالناقد (**سعيد يقطين**) من النقاد الذين درسوا مصطلح التعالق النصي، غير أنّه استخدم مصطلح (**التفاعل النصي**)، حيث يؤكّد "أنّ النصّ ينتجُ ضمن بنية سابقة، فهو يتعالق بها ويتفاعل معها تحويلًا أو تضمينًا أو خرقًا وبمختلف الأشكال التي تتمّ بها هذه التفاعلات"[8]. يُقرّ **يقطين** بأنّ النّصّ يتعالق مع النصوص السابقة له ويتفاعل مع مختلف مكوناتها اللغوية والفكرية.

كما تطرّق الناقد (محمد بنيس) هو الآخر إلى مصطلح التعالق النصي، حيث استخدم مصطلح (التداخل النصي)، ويُطلق عليه كذلك (النص الغائب)، يقول: "فالنص شبكة فيها عدة نصوص، فلا يوجد نص خارج نص آخر، وهذه النصوص الأخرى اللانهائية هي ما نسميه بالنص الغائب"[9]. يتضّح من هذا القول أنّ النصوص التي توظّف في النص الأصليّ تتغير عن مسارها وعن الدلالات التي تؤديها، وفق ذهنية الكاتب وذائقة المتلقي من خلال عملية القراءة.

3-آليات التعالق النصي

أجمع النقاد على صعوبة تحديد آليات ثابتة وواضحة للتعالق النصي، وذلك نظرًا لتعدّد البنى النصية، حيث أنجز بعض النقاد دراسات كمحاولة منهم لتحديد آليات هذه الظاهرة، ومن بين هذه الدراسات ما أنجزه الناقد (محمد مفتاح)، وهي كالتالي:

3-1-التمطيط: ويحصل بأشكال مختلفة، أهمها:

3-1-1-الأناكرام (الجناس بالقلب وبالتصحيف)، الباراكرام (الكلمة المحور):

*القلب، مثل: قول-لوق، عسل-لسع.

*التصحيف، مثل: نخل-نحل، عثرة، عنزة.

*الكلمة المحور: قد تكون مشتتة طوال النص مكوّنة تراكما يُثير انتباه القارئ.

3-1-2-الشرح: يؤكّد محمد مفتاح أنه أساس كلّ خطاب، وخصوصًا الشعر، حيث أنهّ لا بدّ على الشاعر أن يدرك كلّ الوسائل والعناصر المتعلّقة بهذا المفهوم.

3-1-3-الاستعارة: تلعب دورًا جوهريًا في كلّ خطاب، لا سيما أنها تبثّ الحياة في الجمادات، وتساهم في التشخيص.

3-1-4-التكرار: تكرار الكلمات والصيغ والأصوات... إلخ.

3-1-5-الشكل الدرامي: الصراع يولّد توترات مختلفة بين عناصر النّص المعقّدة.

3-1-6-أيقونة الكتابة: أي أنّ تجاور الكلمات المتشابهة أو تباعدها وارتباط التراكيب النحوية ببعضها البعض، كل هذه الأشياء تحمل دلالات الخطاب الشعري اعتبارًا لمفهوم الأيقون[10].

3-2-الإيجاز: لا يقتصر التعالق النصي على التمطيط فقط، بل إنّ هناك ما يُسمّى بعملية الإيجاز، ويرى مفتاح أنّ معرفته ترتكز على الإحالات التاريخية للقصائد الشعرية القديمة، ثمّ إنّ الإيجاز يعتمد على عملية التركيز والاختصار، وهذه العملية تدعى الإحالة المحضة[11].

4-أشكال التعالقات النصية:

4-1-التعالق النصي الديني:

يقوم هذا النوع على النصوص ذات البعد الديني من القرآن الكريم والأحاديث النبوية عند المسلمين، ويقول (صلاح فضل) عنه: "توظيف النصوص الدينية يُعدّ من أنجح الوسائل وذلك لخاصية جوهرية... وهي إنّما ممّا ينزع الذهن لحفظه ومُداوَمة تَذَكُّرِه..." [12]. يمتلك النّص الديني قدرة فائقة تُمكّنه من التأثير على القلوب، ولما كان التأثير على المتلقي من أهمّ الغايات التي يصبو إليها الأديب، فإنّ استغلال النص الديني في بناء النّصّ الأدبي يساهم بشكل كبير في تقوية المنتج الفني ويزيده جمالًا يستحوذ على ذائقة المتلقي.

4-2-التعالق النصي التاريخي:

تُعدّ المادة التاريخية رصيدًا معرفيًا يُثري عملية الكتابة ويعمّق بُعدها الدلالي، ذلك أنّ المبدع يستعمل معطياتها للتعبير عن قضاياه وهمومه، خاصة فيما يتعلّق ببيئته وقوميته، حيث أنّه يُضفي

قيمًا تاريخية وحضارية على نتاجه: "فالحدث التاريخي أو الشخصية التاريخية تكون فقط ضمن إطارها التاريخي ولكن بثوب جديد يخلعه عليها الكاتب أو الشاعر؛ فالشخصية التاريخية محصورة في إطارها فينفخ فيها الشاعر روحًا جديدة، فتجتاز حدودها الضّيّقة وتكتب أبعادًا معنوية جديدة"[13]. فالشخصية التاريخية أو الحدث التاريخي يساهم بشكل كبير في إضفاء أبعادٍ دلالية جديدة، تسمح بامتزاج الجديد بالقديم، وذلك يتحقق من خلال القدرة الإبداعية للمبدع، في اختيار المواقف التي تنبض بالحيوية.

4-3-التعالق النصي الأدبي:

نقصد بالتعالق النصي الأدبي تداخل نصوص أدبية مختارة، فإن كان المأخوذ عنه شِعرًا فهو تناصٌ شعريٌ، وإن كان نسرًا يُسمّى تناصًا أدبيًا، حيث تكون هذه النصوص المتداخلة منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها المؤلف أو الحالة التي يُجسّدها ويُقدّمها في نصّه[14].

5-مفهوم الوصية:

5-1-لغة:

تنوعت تعريفات الوصية في المعاجم العربية، حيث نجد ابن فارس في معجمه (مقاييس اللغة) يقول: "(وصى) الواوُ والصادُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ يدلّ على وصل شيء بشيء، ووصيت الشيءَ وصلتُهُ، ويقالُ: وطئنا واصيةً أي أنّ نبتها متّصلٌ قد امتلأت منه، ووصيت الليلة باليوم: وصلتها وذلك في عمل تعمله.

والوصية من هذا القياس كأنه كلام يوصي أي يوصِل فيقالُ: وصّيتهُ توصيةً وأوصيتهُ إيصاءً"[15].

وورد في (صحاح اللغة) للجواهري: "وأوصيته ووصيتُهُ أي توصية بمعنى الاسم والوصاة، وتواصى القوم أي أوصى بعضهم بعضًا"[16].

ووصيت الشيء بكذا إذا وصلته؛ قال ذو الرمة:

نَصــي اللَيــلَ بِالأَيّــامِ حَتَّــى صَــلاتُنا مُقاسَــمَة يَشــتَقُّ أَنصــافَها السَّــفرُ

وفي القرآن الكريم ورد لفظ (الوصية) في قوله تعالى: ﴿**وَبِعَهدِ اللَّهِ أَوفوا ذلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ**﴾. سورة الأنعام، الآية 152. والوصية هنا عهدٌ من الله عزّ وجلّ على المؤمنين أن يوفوه ويقوموا به، وهو من عموم ما كُلّفوا به من الفرائض.

5-2-الوصية اصطلاحا:

تعددت تعريفات الوصية وتنوّعت لدى الأدباء والفقهاء، حيث تعرفها (سهام عبد الوهاب الفريح) بقولها: "هي الثمرة الفكرية التي يكتسبها الفرد من حياته اليومية، ومن تفاعل هذه التجارب مع بيئته ومجتمعه"[17]. فالوصية، إذن، نقلٌ أمين للتجارب والخبرات التي يكتسبها الفرد في الحياة، حيث يقدّمها الموصي من أجل تحقيق الفائدة للمتلقّين، ليعبُر بهم إلى برّ الأمان، ويُجنّبهم كثيرًا من النتائج السلبية.

كما يعرف (محمد رجب النّجّار) الوصية أنّها: "فن قولي شفوي الأصل يصدر عن رؤية أو عن نزعة مثالية في مضمونه وغايته... والغاية من الوصية نقلُ الخبرة العملية وحشد التجربة الإنسانية وتنظيم أمور الحياة الخاصة أو العامة من الأكبر للأصغر على نحو مثالي ونموذجي"[18]. يتأكّد من هذا التعريف أنّ الوصية من الفنون الأدبية التي تحمل في ثناياها بذور الإصلاح وتقويم السلوك، لا سيما أنّ الوصيّة تكون نتيجة لعصارة التجارب ونوائب الدهر التي يواجهها الإنسان في حياته، وهذا بدوره يُضفي عليها طابع المصداقية التي تساهم في تنظيم حياة المجتمع.

6-أنواع التعالقات النصية في الوصايا العربية -العصر العباسي-

6-1-التعالق النصي الديني:

يلجأ المبدع في هذا النوع من التعلق النصي إلى توظيف التراث الديني كونه مصدر إلهام أدبيّ، وملاذٌ روحي يلجأ إليه منتجو النصوص، لأنّه يصقل الوجدان الروحي، كما أنّه أحدث ثورة في فنون التعبير، ليخلقَ تشكيلًا فنيًا تطمئنّ إليه الأسماع وتشرئبُّ إليه الأعناق وتهوي إليه الأفئدة، ويتعامل معه الأدباء والخلفاء كلٌّ وفق تصوّره.

6-1-1-التعالق النصي القرآني

يجدُ المتمعّن في متن الوصايا في العصر العباسي أنّ التعالق النصي مع القرآن الكريم حاضرٌ بشكل كبير، ويدلّ ذلك بدوره دلالة واضحة على مدى تأثّر الكتّاب والخلفاء بالنّصّ القرآني الذي علق في أذهانهم، ويتجلّى هذا التأثّر في وصيةٍ لهارون الرشيد التي يوصي فيها أحد قادته

(علي بن عيسى) عندما بعثه إلى خراسان، والتي يدعوه فيها إلى الالتزام باليقظة والحذر من العدو، ومشاورة أهل التجارب فيقول: "يا علي تيقّظ في أمورك، واحترس من عدوّك، وشاور ذوي الأسنان من أهل التجارب تُفتح لك أبواب المطالب، واتّقِ الله يعطني عليك، ولا تعصه يسلطني عليك"[19]. حين نتأمل متن هذه الوصية نجد أنّ هارون الرشيد يوجه قائده إلى التحلي باليقظة ومشاورة غيره من أهل التجارب إذا أشكل عليه أمرٌ من أمور السياسة، وفي هذا القول تعالق نصّي مع الآية الكريمة: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾.سورة آل عمران، الآية 159. والواضح من الآية أنّ الله عزّ وجلّ يأمر نبيه بمشاورة أصحابه، ومن المعلوم أنّ النّبيّ لا يحتاج إلى مشورة أحد، ولكن أراد النبي الكريم تعليم أصحابه لنا في المشاورة من الفضل لتقتدي به أمته من بعده، وتكمن العلاقة بين نصّ الآية الكريمة ومتن الوصية في مبدأ المشاورة، حيث أنّ هارون الرشيد أراد أن يوجّه قائده إلى ضرورة مشاورة غيره من أهل القول والتجارب، لأنّ ذلك يساعده في إيجاد حل للمشكلات التي تواجهه، ومن جهة أخرى فإنّ من ثمار المشاورة تطييب القلوب وتحصيل الخبرة، وتقوية الأواصر بين المجتمع.

كما يتواصل حضور التعالق النصي مع القرآن الكريم في الوصايا الأدبية الواردة في العصر العباسي، وذلك بدوره يدلّ على مدى تأثير المحور الديني على ثقافة الكتّاب والخلفاء في حياتهم، ويتجلّى هذا التّأثّر في وصية لأبي مسلم الخراساني يوصي فيها قادة جيشه بقوله: "أشعروا قلوبكم الجرأة، فإنها من أسباب الظفر، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب"[20]. يجد المتمعن في هذه الوصية أنّ أبا المسلم الخراساني، يأمر قادته بضرورة التحلي بالجرأة، لأن ذلك يقذف الرعب في نفوس الأعداء، ويضعف من همّتهم ويثبّط عزائمهم، ويثير الخوف في نفوسهم، وفي ذلك تعالق نصي مع الآية القرآنية: ﴿**وَأَعِدّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِباطِ الخَيلِ تُرهِبونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم وَآخَرينَ مِن دونِهِم لا تَعلَمونَهُمُ اللَّهُ يَعلَمُهُم وَما تُنفِقوا مِن شَيءٍ في سَبيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيكُم وَأَنتُم لا تُظلَمونَ**﴾. سورة الأنفال، الآية 60. يتضح من خلال الآية الكريمة أنّ الله عزّ وجلّ يأمر المؤمنين ويحثّهم على القتال والجهاد ضدّ المشركين بكلّ ما أوتوا من قوّة، ومن ثمّة فالعلاقة بين نصّ الوصيّة والآية القرآنية، تتمثل في أنّ التحلّي بالشجاعة والجرأة من أسباب تحقيق النصر ضدّ العدو.

كما أنّ أبا مسلم الخراساني يأمر قادته بأهمية ذكر ضغائن العدوّ أثناء مباشرة القتال، ويتجلى ذلك في قوله: "... وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنّها حصن المحارب"[21]. وقع التعالق النصي في هذا القول مع الآية القرآنية: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا قاتِلُوا الَّذينَ يَلونَكُم مِنَ الكُفّارِ وَليَجِدوا فيكُم غِلظَةً وَاعلَموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقينَ**﴾. سورة التوبة، الآية 123. إنّ العلاقة بين نصّ الوصية والآية القرآنية تكمن في أسباب تحقيق النصر ضدّ الأعداء، ويتجسّد ذلك من خلال ذكر ضغائن العدو لأنّ ذلك يُنمّي الحقد في القلوب، ويزيد قوة الانتقام في الحرب، لا سيما إذا التزم الجند بالطاعة التي تعدّ رُكنًا أساسًا يُساعدُ على تحقيق النص المؤزر.

6-1-2-التعالق النصي مع الأحاديث النبوية:

توظيف الحديث النبوي في العمل الإبداعي له دور كبير في التأثير على المتلقي وشدّ ذهنه إلى كلّ ما يُقال، أضف إلى ذلك أنه يساهم بشكل كبير في تقوية المنتج الفني نظرًا لقوة المعاني وجودة السبك وعذوبة الألفاظ الموجودة في الأحاديث النبوية، لذلك نجد في الوصايا الواردة في العصر العباسي تعالق نصي معها، وهذا ما يتجلى في وصية هارون الرشيد لأحد قواده (علي بن عيسى)، التي وظّف فيها التعالق النّصّي مع الحديث النبوي: "... وشاور ذوي الأسنان من أهل التجارب تفتح لك أبواب المطالب..." [22]. في هذه الوصية تعالق نصي مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما خاب من اِستشار ولا شقي من أُستشار"[23]. ومن ثمّة فالمكلّف بالمسؤولية لا بدّ أن يحكّم عقله في اختيار من يراهم الأنسب والأمثل لمواجهة المعضلات وتذليل الصعوبات التي يواجهها في حياته، لا سيما المجرّبون الذين تذوّقوا الحياة بحلوها ومرها، والعلاقة بين هذا الحديث وقول هارون الرشيد تتمثّل في أنّ من يتولّى أمر الرّعية لا بدّ أن يُشيرَ أهل البصيرة الذين عُرفوا بسداد الرأي، لأنّ في ذلك أمنٌ له من الوقوع في زلل، ومُساندًا له في تطييب خاطر الناس لينال حبّهم وودّهم.

وتعدّ الوصيّة الحربية من الألوان النثرية التي تعبّر عن سيادة القادة في فوضى المعارك ضد أعداء الدين، ولنا في ذلك وصية لأبي مسلم الخراساني لقواده، يقول فيها: "أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر..."[24]. يتعالق هذا القول مع الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم: "الشجاعة عزيزة يضعها الله في قلب من يشاء من عباده وإنّ الله يحبّ الشجاعة ولو على

مثل حية"[25]. يكشف هذا الحديث على أنّ الشجاعة خصلة عظيمة يقذفها الله عزّ وجلّ في قلوب عباده المؤمنين، وهي أمر مطلوب في الجهاد ضدّ المشركين، فالعلاقة بين متن الوصية ونص الحديث تكمن في أنّ الشجاعة مبدأ من مبادئ الشخصية في سبيل إعلاء كلمة الحق ومحاربة الظلم.

6-2-التعالق النصي الأدبي

يُعدّ التعالق النصي الأدبي ركيزة أساسية في العمل الفني، ويتجسّد ذلك من تداخل نصوص أدبية شعرية كانت أو نثرية، توظّف بطريقة منسجمة ومتلائمة مع الفكرة التي يطرحها المبدع في نصّه.

6-2-1-التعالق النصي مع الشعر العربي:

إنّ حاجة الإنسان للشعر حاجة أصيلة في التكوين الإنساني، لأنّ الشعر يفتح نافذة الخيال لدى الإنسان، ويعبّر عن مختلف رغبات الإنسان وهواجسه، كما أنّه يلبّي حاجة الإنسان في الوجود والواقع الذي يعيش فيه، والمتمعّن في متن الوصايا في العصر العباسي يجدها تتعالق نصيًا مع الشعر العربي، وذلك بدوره يدلّ دلالة واضحة على مدى اطلاع الكتّاب والخلفاء على الشعر العربي، وتأثرهم باللغة الشعرية، ومثال ذلك ما ورد في وصية لهارون الرشيد؛ يوصي فيها أحد قواده (علي بن عيسى) لما أراد إرساله إلى خراسان؛ يقول هارون الرشيد: "يا علي تيقّظ في أمورك واحترس من عدوّك..." [26]. يجد المتأمل في هذه الوصية تعالقا نصيًا مع قول الخليفة علي كرّم الله وجهه الذي يقول:

وَاَلــقَ عَــدُوَّكَ بِالتَحِيَــةِ لا تَكُــن مِنــــهُ زَمانَـــكَ خائِفـــاً تَتَرَقَّـــبُ

وَاِحـذَرهُ يَومـاً إن أَتـى لَـكَ باسِـماً فَاللّيــثُ يَبــدو نابُــهُ إذ يَغضَــبُ[27]

والعلاقة بين الوصية وهذه الأبيات الشعرية، تكمن في الحرص من كيد الأعداء والاحتراز من خداعهم، لذلك عبّر الخليفة علي رضي الله عنه عن كيد العدوّ بطريقة إبداعية تجسّدت في صورة الأسد الذي يظهر نابهُ حين يغضبُ، وفي الوصية نفسها نجدُ الموصي أورد التعالق النصي مع بيت الشاعر الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، فيقول: "وشاور ذي الأسنان من أهل التجارب تُفتح لك أبواب المطالب"[28]، وقد أشار الأعشى إلى هذا المعنى في قوله:

لا تقطعـنَّ بـرأي نَفْسـكَ واستشـرْ مـن ذاقَ أحـوالَ الزمـانِ ومارسـا[29]

والعلاقة بين هذا البيت الشعري ونص الوصية تكمن في أنّ الإنسان لا يكتفي برأيه في الوجود، لا سيما إذا كان مسؤولا على الرعية، فلا بدّ أن نستشير ناسًا خاضوا غمارَ الحياة، وعاشوا التجارب بحلوها ومرّها، لأنّ ذلك يساعد الإنسان في تجنّب الأخطاء التي وقع فيها غيره من الناس.

كما تجدر الإشارة إلى وصية (بِشر بن المعتمر)، التي يوصي فيها المبدعين والكتّاب، ويتجلّى ذلك في قوله: "خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك..." [30]. والمتمعن في نصّ الوصية يجد تعالقا نصيًا مع قول الشاعر (أبي ذؤيب الهذلي):

والـــنَّفسُ راغِبـــةٌ إذا رغَّبتَهـــا وإذا تُـــردُّ إلـــى قليـــلٍ تقنـــعُ[31]

6-2-2-التعالق النصي مع الأمثال الشعبية:

تُعدّ الأمثال الشعبية من أهمّ الروافد الثقافية التراثية التي تغذّي العمل الأدبي، وتضفي عليه جمالية تؤثر في القلوب، كونها تمثّل خلاصة تجربة حياتية. والمتتبع لنصوص الوصايا العربية الواردة في العصر العباسي، تكشف عن مدى تأثر الأدباء والخلفاء بالموروث العربي القديم، الذي غلبت عليه بلاغة التعبير ودقة التصوير التي يهزّ لها كيان المتلقي، ونلمس ذلك في وصية لهارون الرشيد يوصي فيها أحد قواده (علي بن عيسى) لما أرسله إلى خراسان بقوله: "وشاور ذوي الأسنان من أهل التجارب تفتح لك أبواب المطالب"[32]. وفي هذا القول تعالق مع نص المثل العربي في المشاورة: (اسأل مُجرّبا ولا تسأل حكيما) [33]. يكشف هذا المثل أنّ الإنسان الذي حزبه أمر وادلهمّ عليه خطب فعليه أن تشير غيره من الخبرة، وكذلك الأمر نفسه لمن تولّى أمر الرعية، لأنّ ذلك يعينُ على تجاوز العقبات دون الوقوع في الزلل الذي يورثه الحسرة والندامة.

يُضاف إلى ذلك ما ورد في وصيّة (ابن المقفّع) يوصي فيها ابنه بوجوب الاهتمام بأموره دون التواني في ذلك، ويتجلى ذلك في قوله: "أي بني، أوجب على نفسك تفقّد أمورك ومصالحك"[34]. والمتأمّل في الوصية يجدها تتعالق مع نص المثل العربي القائل: "ما حكّ جلدك مثل ظفرك فتولّ أنت جميع أمرك"[35]. أي أنّه لا بدّ على الإنسان أن يتولّى قضاء حوائجه بنفسه، دون التواكل على الغير في قضاء المصالح، لأنّ ذلك يعوّده الكسل والخمول، والعلاقة إذن بين النصين تجسّد حرص (ابن المقفع) على تعويد ابنه الاعتماد على نفسه في قضاء حوائجه منذ صباه.

6-3-التعالق النصي التاريخي:

لا شكّ أنّ المادة التاريخية تُثري عملية الكتابة الإبداعية، وتعمّق البُعد الدلالي، فالمبدع يستغلها للتعبير عن قضاياه وهمومه، خاصة فيما يتعلق بقوميته، ومن الوصايا التي يتجلى فيها البعد التاريخي في العصر العباسي؛ وصية (الأمين) ابن هارون الرشيد، التي يوصي فيها أحد قوّاد جيشه، حيث يُضمّن الوصية جملة من الأمور العسكرية التي يتوجّب عليه العمل بها، وممّا جاء فيها قوله: "امنع جندك من العبث بالرعية، والغارة على أهل القُرى وقطع الشجر، وانتهاك النساء، ولا تُعاقب أخًا بأخيه، ولا تأمن أحدًا رماك بسهم، أو طعن في أصحابك برُمح..." [36]. حين نتأمّل متن الوصية نجده يتعالق مع نصّ لحدثٍ تاريخي مهم في التاريخ الإسلامي، يعبّر عن استراتيجية النبي الكريم —صلى الله عليه وسلّم– في خوض المعارك ضدّ الكُفّار وغيرهم من أعداء الدين، حيث أنّه إذا أراد أن يبعث سريّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: "سيروا وباسم الله وبالله في سبيل الله وعلى ملّة رسول الله، لا تغدروا ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا صبيًا ولا امرأةً ولا تقطعوا شجرًا..." [37]. والملاحظ بالنظر إلى متن الحديث أنّ النبي الكريم يأمر جنده من المسلمين إلى ضرورة التحلي بالقيم الإسلامية حتى في حالة الحرب، من خلال كفّ يد البطش عن الشيوخ والنساء والأطفال، وهذا بدوره يمثّل سماحة الإسلام واستراتيجيته التي تهدفُ دومًا إلى المنفعة ونبذ الظلم والعدوان والتنكيل بجثث القتلى، فكذلك الحال بالنسبة للأمين الذي كان شديد الحرص على غرس هذه المُثُل الإسلامية العُليا في قلوب قادته وجنده.

في الختام، تجدر الإشارة إلى أنّ التعالق النصي كمفهوم حداثي اشتهر في النقد الغربي، تعددت تعريفاته واختلفت مستوياته من ناقد لآخر، غير أنّ له إرهاصاته في النقد العربي القديم لكن تحت مسميات مختلفة تتقارب في المعنى مع هذا المصطلح، كالتضمين والانتحال... إلخ، يُضاف إلى ذلك أنّ فنّ الوصايا من أجلّ الأغراض وأنبلها في الأدب الإسلامي شرفًا وعمقًا في المعاني، وتأثيرًا في النفوس، لذلك نجدُ الكتّاب والخلفاء قد وظّفوا آلية التعالق النصي مع النصّ الديني (القرآن الكريم والحديث النبوي) والنص الأدبي (الشعر العربي والأمثال الشعبية)، وكذلك المادة التاريخية، مما يمثّل دلالة واضحة على مدى تشبّعهم بالموروث الديني والهوية العربية الإسلامية.

هوامش:

[1]- محمد عزام، النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)، دراسة من منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2001، ص 14.

[2]- عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2008، ص 270.

[3]- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريدة الزاهي، مراجعة عبد الحليم ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت، ص 22.

[4]- عبد الحميد علوي إسماعيل، الخطاب النقدي عند رولان بارت لموت المؤلف، مجلة مغرس، نشرت في أخبار الجنوب، 2012/06/14، ص 01.

[5]- امرؤ القيس، الديوان، مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2004، ص 156.

[6]- ينظر، بدوي طبانة، السرقات الأدبية، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، مصر، ط1، د.ت، ص 38.

[7]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ج1، ص 28.

[8]- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2001، ص 98.

[9]- محمد بنيس، حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص 85.

[10]- ينظر، محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1992، ص 125.

[11]- ينظر، المرجع نفسه، ص 125.

[12]- صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية (قراءة في الشعر والقصة والمسرح)، هيئة القصور الثقافية، القاهرة، مصر، ط1، 1993، ص 41.

[13]- صبحي البستاني، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص 194.

[14]- ينظر، أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2000، ص 50.

[15]- أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دت، ج2، مادة (وصى)، ص 1055.

[16]- أبو نصر بن إسماعيل بن حماد الجواهري، تاج اللغة وصحاح العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1999، مادة (وصى)، ص 1144.

[17]- حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1443هـ-2003م، ص 8.

[18]- أحمد صفوت زكي، جمهرة خطب العرب في العصور الزاخرة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص 135.

[19]- أبو الطيب بن يحي الوشّاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1991، ص 17.

[20]- أحمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص 134.

[21]- المصدر نفسه، ص 134.

[22]- المصدر نفسه، ص 17.

[23]- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2002، رقم 245.

[24]- أحمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ص 134.

[25]- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، رقم 5975.

[26]- أبو الطّيّب يحي الوشّاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص 17.

[27]- علي بن أبي طالب، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص 184.

[28]- أبو الطّيّب يحي الوشّاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص 17.

[29]- الأعشى الكبير، الديوان، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1974، ص 61.

[30]- أبو الطّيّب يحي الوشّاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص 17

[31]- أحمد الشال، ديوان الهذليين، مركز الدراسات والبحوث، بور سعيد، مصر، ط1، 2014، ص 83.

[32]- أبو الطّيّب يحي الوشّاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص 17

[33]- روحي البعلبكي، معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، المكتب العلمي للتأليف والترجمة، بيروت، لبنان، ط3، 2001، ص 247.

[34]- أبو الطّيّب يحي الوشّاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص 17

[35]- روحي البعلبكي، معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، ص 221.

[36]- محمد نايف الديلمي، جمهرة وصايا العرب، دار النضال، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ج2، 229.

[37]- أخرجه مسلم وأبو داود، رقم 2669.